الاوضاع السياسية والاقتصادية للحلة في عهد الدولة التركمانية

(٨١٤هـ/١٤١١م-٨٩٣هـ/١٤٨٧م)

م.د. يونس عباس نعمة

باحث أقدم ميثاق عبيس حسين

المقدمــة

شهد العراق بشكل عام والحلة بشكل خاص مرحلة مهمة من مراحل الصراع بين الدويلات الأجنبية التي اتخذت بعد دخولها الإسلام الشرعية للتوسع في البلدان المختلفة ، وقد انعكس هذا الصراع بشكل سلبي على مدن البلاد المختلفة ، فلا تجد استقراراً سياسياً واقتصادياً في عموم البلاد فكلما سيطرت دويلة على مناطق معينة وكان لها القوة هاجمت الدويلات الأخرى في العراق وأخذت مكانها ، وكانت البلاد في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي مسرح للصراع بين الدولة الجلائرية التي كانت في مرحلة ضعف وتدهور في العراق وبين الدولة التركمانية الصاعدة والتي كان يطلق عليها (القرة قويلو) والتي استطاعت إبعاد الجلائريين عن بغداد والحلة وعدد من المناطق الاخرى غير ان هذه الأبعاد لم يكن ليقضي على القوة الجلائرية التي استطاعت مجدداً من إبعاد القرة قوينلو عن بغداد والحلة للمدة (٨٢٦هـ/١٤٢٣م-٨٣٥هـ/١٤٣١م) ، إذ بعد هذا التاريخ عاود القرة قويلو بالسيطرة حتى عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م والذي بد صراعهم وتنافسهم مع الإمارة المشعشعية على مناطق عدة ومنها الحلة والتي عانت الأمرين في هذه المرحلة من الصراع وفي المرحلة الأخيرة من هذا القرن بدأ تنافس جديد بين دويلة الأق قويلو التي استطاعت إبعاد القرة قويلو وإمارة المشعشعين وكان الغلبة فيه للأق قويلو .

قسم البحث إلى خمسة مواضيع بحسب التسلسل الزمني ، تناول الأول الأوضاع السياسية للحلة في ظل النزاع بين القرة قويلو والجلائريين (٨١٤-٨٢٦هـ / ١٤١١م-١٤٢٣م) وفي الموضوع الثاني تناول الأوضاع السياسية للحلة تحت سيطرت الجلائريين (١٤٢٢-١٤٣١م) وفي الموضوع الثالث تناولنا الصراع بين دولة القرة قويلو والإمارة المشعشعية للمدة (٨٥٧-٩٠٠هـ) ثم بعد ذلك أوضاع الحلة تحت سيطرة دولة الأق قوينلو وفي الأخير لمحة عن اوضاع المدينة الاقتصادية.

أولاً :- الحلة في معترك الصراع بين الجلائريين والتيموريين والقرة قويلو (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢هـ- ٨١٤هت/ ١٤١١م)

عُد الربع الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشرالميلادي بداية لمرحلة مهمة من الصراع بين عدة قوى أجنبية لسيطرة على العراق ، ومنذ سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م كانت بغداد والحلة تحت حكم السلطان احمد الجلائري زعيم الدولة الجلائرية[١] والتي بدأ خطر التيموريين[٢] يهددها بعد أن أصبحت وجهتهم بغداد سنة٧٩٥هـ/١٣٩٢ م و سرعان ما فرضوا السيطرة عليها فما كان من حاكمها أحمد الجلائري إلا الهروب باتجاه الحلة ومنها إلى بادية الشام ، فلاحقه تيمورلنك إلى الحلة التي لاقت ايام عصيبة عند دخولهم إليها بعد أن عاثوا فيها فساداً وقتلوا العديد من سكانها وخربوا بيوتها وأصبح أمير شاه ابن تيمورلنك حاكماً عليها.[٣]

يبدو للمتتبع لسير الاحداث في هذه المدة ان مايسمى بسيطرة قوة معينة على مدينة يعد شكلياً أكثر مما هو عملياً وهو رهين بقوة تلك الدويلة المسيطرة فمتى ما انشغلت بمكان ما خارج العراق فسح مجال للقوى المنافسة بالانقضاض على المدن العراقية والسيطرة عليها وهذه علامة بارزة في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، فبعد انشغال التيموريين واهمالهم لبغداد والحلة عاود الجلائريون السيطرة عيها سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م بمساعدة مماليك بلاد الشام ومصر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م وكذلك الحلة التي نقل إليها اقامته أحمد الجلائري سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م

بعد ان تفشى مرض الطاعون في بغداد ومن الحلة قام بارسال قوة بمهاجمة المناطق الجنوبية للبلاد في محاولة للاستيلاء على البصرة وعاد إلى بغداد مع ابنه الأمير طاهر[٤].

استطاعت العشائر العربية بزعامة الأميرين ناصر ومحمود القباني من صد الهجوم الجلائري وملاحقة القوات المتراجعة حتى الحلة وإبعاد حاكمها الجلائري ولم يخرجوا منها إلا بعد أن هاجمها الأمير طاهر الذي قدم من بغداد فعادت الحلة للسيطرة الجلائرية مجدداً [٥].

بعد أن استتب الأمر للتيموريين في بلادهم عاودوا مهاجم بغداد والحلة ، فما كان من احمد الجلائري إلا الهروب نحو بلاد الشام وترك الأمير فرج الجلائري على بغداد وتولية فرخ شاه حاكم على الحلة ولم تنجح قوات الجلائريين في بغداد والقوات التي ساندتها من الحلة بصد التيموريين فدخلوا بغداد سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م.[٦]

منذ بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي دخل على خط الصراع قوة جديدة من الاتراك بعد ان اصبحت لهم مكانة متميزة في البلاد الإسلامية اثر دخولهم للجيش ووصول العديد منهم الى أعلى المراتب العسكرية ومن بين هؤلاء القبائل التركمانية والتي عرفت بالقرة قوينلو والذين ذكر انهم تفرعوا عن الغز المنسوبين إلى (أوغوز) البطل الاسطوري عند الترك وكانت بلادهم الأصلية عند التركستان الغربية في أواسط آسيا وبسبب صراعهم مع المغول توجهوا غرباً نحو أذربيجان وسيواس في الجهات الشرقية للاناضول ، وأصل تسميتهم القرة قويلو تعني سود الغنم بعد ان اهتموا بتربية هذا النوع من الأغنام وإتخاذه سمة تميز راياتهم عن غيرهم من القبائل التركمانية.[٧]

حدث تعاون بين الجلائريين والقرة قويلو و العثمانيين في محاولة لإبعاد التيموريين وصد هجماتهم وبدأ التعاون بين امير القرةقويلو المسمى قرة يوسف والسلطان احمد الجلائري ، وأستغل الطرفان توجه التيمورين إلى الأناضول، فدخلا العراق ليستقر قرة يوسف في بادية هيت وتوجه احمد الجلائري إلى بغداد فاستعادها من التيموريين وأرسل ولده طاهر لحكم الحلة ، غير ان الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما عاد التيموريين لبغداد فانهزم احمد الجلائري إلى منطقة الأهوار ، وبقي حتى توجه التيموريين مجدداً لمهاجمة الأناضول .[٨]

قام تمرد في صفوف الجلائريين وبدت الرغبة واضحة لدى عدد من الأمراء في إعلان الأمير طاهر سلطان بدلاً من ابيه في مدينة الحلة فسارع السلطان أحمد الجلائري لطلب المعونة من قرة يوسف الذي توجه بقوة إلى الحلة واستطاعت القوات المشتركة من إبعاد المتمردين في معركة حدثت عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م والتي قتل على أثره الأمير طاهر. [٩]

أختلف الجلائريون مع القرة قويلو في مدينة الحلة حول توزيع الغنائم وسرعان ما فرض القرة قويلو سيطرتهم على الحلة فأتجه احمد الجلائري إلى بغداد ليستقر فيها لوقت قصير بعد أن لحقه قرة يوسف وابعدها عنها بعد ثلاثة أشهر من سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م غير أنهم سرعان مافقدو مواقعهم أمام هجوم التيموريين الجديد الذين ابعد القرة قويلو في نهاية عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ، وفي عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م عاد احمد الجلائري إلى العراق واستقر في الحلة وجمع قوة تقدم بها إلى بغداد التي طرد حاكمها التيموري وبقيت بغداد تحت حكم الجلائريين حتى نهاية سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م التي توفي السلطان أحمد الجلائري.[١٠]

ثانياً:-الأوضاع السياسية للحلة في ظل النزاع بن الدولة التركمانية والجلائريين (٨١٤/١٤١١-٨٢٦/١٤٢٣)

اشتد النزاع بين الدولة الجلائرية التي كانت تشهد مرحلة أفول والقبائل التركمانية الصاعدة بعد مقتل السلطان احمد الجلائري ليؤشر إلى نهاية دولة الجلائرين[١١] ، وسيطرت قبيلة (القرة قويلو) على بغداد وبقية المدن ومنها الحلة ، واول حكامهم عرف بالشاه محمد ،[١٢] ونتيجة للصراع الذي دار بين تلك القوى عمت الفوضى وانعدم الأمن وكثرت الأمراض والمجاعات بين عوام الناس ، ويبدو ان المصادر التاريخية لم تشر إلى تحسن في أوضاع مدينة الحلة في النواحي السياسية واليومية في عهد حكم الشاه محمد الذي امتد حكمه (٨١٤-٨٢٤هـ/ ١٤١١-١٤٢١م) والحدث الذي تم الاشارة إليه هو انتشار وباء الطاعون سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م في المدن المختلفة ومنها الحلة.[١٣]

يمكن القول انه في طيلة تعرض البلاد إلى الهجمات المتعاقبة للاحتلال ، نجد أنه من النادر أن لا يكون هناك خلاف وصراع وقتال مع القبائل العراقية المنتشرة في عموم البلاد ، وفي كثير من الأحيان نجد ان تاريخ والٍ أو حاكم عبارة عن قتال مع إحدى القبائل أو أكثر ، وتكمن وراء ذلك عدة أسباب منها رفض الغزاة وكثرة الضرائب والتفرقة التي يعمل على إثارتها المحتل من

خلال الاعتماد على قبيلة دون أخرى، أو تجريد عشيرة من ملكية الأرض وفي المقابل نجد ان تدهور وضعف السلطة في مدينة ما يكون مدعاة تشجيع العشائر على التدخل في شؤون المدينة والتصرف بها حسب أهواء تلك العشائر.(١٤)

شهدت الحلة تدهور في أوضاعها السياسية في عهد دولة قرة قويلو ، أدت بالتالي إلى تدخل العشائر المحيطة بالمدينة ففي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١ حدث نزاع بين بطون قبائل ربيعة، واستعانت إحدى البطون بقبيلة خفاجة القاطنة في نواحي الحلة والتي كانت برئاسة رجل يقال له عذراً ، فما كان من خفاجة إلى التدخل وفرض حصاراً على المدينة ، أدى بالتالي لدخولها وبث الذعر فيها ونهب ما فيها وقتل عدد من سكانها وهرب عدد من سكانها إلى خارج المدينة.(١٥)

فرضت قبيلة خفاجة سيطرتها على المدينة لمدة سبعة اشهر ، دون ان تقوم الدولة التركمانية في بغداد بشئ يذكر للتدخل في إبعاد القبيلة عن المدينة خاصة وان الدولة كانت تمر بمرحلة ضعف بعد موت مؤسسها قرة يوسف سنة ٨٢٣هـ /١٤٢٠م.(١٦)

ان التدهور الذي حدث في دولة القرة قويلو ، مهد الطريق للسلطان الجلائري (أويس الثاني) الذي كان حاكماً على البصرة وواسط منذ سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م من مد نفوذه باتجاه الحلة وبغداد وقام بارسال احد أعوانه المسمى(ابو علي الأنباري) إلى مدينة الحلة لمقابلة رئيس عشيرة خفاجة وعرض عليه المال مقابل الدخول في ولاءه والخروج من المدينة وذكر انه وجد المدينة تحت طائلة السلب والنهب والتخريب وبالرغم من ذلك قدم له المال ليحثه على الخروج.(١٧)

خضعت الحلة إلى الحكم الجلائري مجدداً بعد أن سلم رئيس قبيلة خفاجة امرها الى أبو علي الأنباري وخرج مع اتباعه إلى ضواحي الحلة ليحكم الأنباري لمدة ثلاثة اشهر وساهم في محاولة إعادة الاستقرار للمدينة.(١٨)

يمكن الإشارة إلى ظاهرة بارزة في هذا العهد والعهود التي تلته وهي أن الوجهاء أو المتنفذين في مدينة الحلة وينسحب القول على بغداد ايضاً أنهم إذا علموا بقوة أحد الأطراف المتنفذة ونيته بالسيطرة على مدينته راسلوه ليقوم بذلك ، فقد أشارت المصادر التاريخية ان أهالي الحلة وبغداد راسلوا السلطان الجلائري (أويس) بعد أن علموا نيته التقدم باتجاه الحلة وبغداد لإبعاد الدولة التركمانية ، غير ان تلك المراسلات كشفت من الشاه محمد حاكم دولة القرة قويلو فأمر بالقبض على الوجهاء ، ومن بينهم أربعة من الحلة وهم السيد فخر الدين الأعرج وعبد الملك وناصر الدين خواجه وعلي بن خواجه وتم تنفيذ حكم الإعدام بهم من قبل الشاه محمد سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م.(١٩)

ذكرنا ان الدولة التركمانية(القرة قويلو) كان ينتابها العديد من الخلافات بعد مقتل رئيسها الشاه قرة يوسف ، ومن جملة الخلافات ما حدث بين الشاه محمد ورئيس ديوانه في بغداد المسمى درسون ، فما كان من الأخير إلى الخروج باتجاه الحلة برفقة أربعمائة فارس الأمر الذي افزع حاكمها الأنباري الذي يبدو انه اعتقد بكثرة المهاجمين وجهل من يقف ورائهم ، فقرر الخروج من الحلة دون إبداء مقاومة على الرغم من قلة المهاجمين ، وبعد أن عرف مساندته من قبل السلطان الجلائري الذي انشغل في الصراع المشتعل في (تستر) ، وحكم أندرسون المدينة لمدة ثمانية أشهر .(٢٠)

ثالثاً:- الحلة تحت سيطرة الجلائريين (٨٢٦-٨٣٥هـ/١٤٢٢-١٤٣١)

انعكس الصراع بين الدولة التركمانية (القرة قويلو) والجلائريين على الوضع السياسي والاقتصادي في عموم البلاد ومن بينها الحلة والتي عانت كثيراً بسبب تبدل السيطرة السياسية في المدينة ، فبعد ميل ميزان القوى لصالح الجلائريين في تستر ،قرر السلطان اويس الجلائري إعادة السيطرة على مدينة بغداد والحلة وانتزاعها من أيدي القرة قويلو واسند المهمة إلى أخيه السلطان (محمد بن شاه ولد) الذي قاد قوة عبر واسط باتجاه الحلة سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) فدخلها دون مضايقة ومقاومة من حاكم الحلة الأمير أدرسون الذي فضل الهرب والتوجه إلى تبريز.(٢١)

أن استيلاء السلطان محمد بن شاه ولد على الحلة سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) مثل محاولة لاستعادة هيبة الدولة الجلائرية في البلاد في هذه المرحلة خاصة بعد ان أتخذها عاصمة له ، قام السلطان بالاستعانة بعدد من الشخصيات الحلية كوزراء في حكومته مثل تاج الدين بن حديد في محاولة لاستمالة وجهاء وأعيان المدينة، وحكم السلطان محمد لمدة سنة في الحلة وحاول

اخضاع بغداد للحكم الجلائري بعد ان قام بحصارها وساهمت شدة وقوة حصونها من الجهة الشرقية بعدم تمكن السلطان من ذلك خاصة وان الجهة الغربية كانت مفتوحة الأمر الذي اضطر السلطان إلى الانسحاب.(٢٢)

خلف السلطان محمد بعد وفاته السلطان حسين بن علاء الدولة بن احمد الجلائري في سنة ٨٢٧هت/ ١٤٢٣م والجدير بالذكر قيام هذا السلطان بالاستعانة بعدد من الحليين في بلاطه ، إذ قام بتعيين وزيراً من اهل النيل هو عبد الكريم نجم الدين سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م واستعان بعده بشهاب الدين وزيراً والذي تم إعدامه من قبل السلطان فحل محله أخيه نظام الدين واتسع سلطانه حتى البصرة وكان سيئ السيرة فاسد الاخلاق، الأمر الذي أفقده تأييد الأهالي ومعاونة الوجهاء ولم يقتصر الأمر على الأهالي بل أن الأمراء قاموا بمراسلة الشاه أسبان القرة وقويلو لتخليصهم من يد هذا السلطان.(٢٣)

تحرك القرة قويلو بقيادة الشاه أسبان في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م وعبروا نهر دجلة وحدثت اولى مواجهاتهم مع الجلائريين في منطقة السيب بين بغداد والحلة فكانت الغلبة للسلطان حسين الجلائري ، وقام القرة قويلو بمحاولة ثانية وصلوا خلالها إلى جانب الحلة الشرقي بجانب الكلج ثم إلى قرية المزيدية التي منها عبروا إلى الجانب الأخر بعد حصار على المدينة دام حوالي سبعة أشهر اثر بشكل كبير في تدهور الأوضاع الاقتصادية في المدينة ولم يكن امام السلطان حسين الا تسليم المدينة مقابل الحصول على الأمان من الشاه آسبان ، وفي ٣ ربيع الأول سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م حاول الهرب من الحلة فتم إلقاء القبض عليه وقتله لتنتهي صفحة مهمة من الصراع بين القرة قويلو والجلائريين.(٢٤)

أصبحت الحلة تحت قبضة الشاه اسبان بعد هزيمة الجلائريين فيما كانت بغداد تحت حكم أخيه الشاه محمد ، وذكر أن الشاه آسبان أمتاز بحسن السيرة والإدارة الجيدة وقام بمحاولات لكسب الأهالي في المدينة ، إذ ذكر الغياثي أنه كان نظيفاً مع ظلمه وشدته ، ذلك أنه لم يطمع في نساء أحد من خلق الله سوى المرأة التي أخذها في بغداد وتزوجها وقنع بها إلى حين وفاته.(٢٥)

يبدو أن الوضع بين الشاه آسبان واخيه محمد لم يكن على ما يرام ، وان الشاه آسبان وبعد أن مد نفوذه إلى واسط ، بدأ التفكير في فرض سيطرته على بغداد وإبعاد الشاه محمد وفعلاً توجه إلى بغداد سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م واستطاع السيطرة عليها وطرد أخيه الذي قتل بعد ذلك في أحدى المعارك مع قوات الشاه أسبان ، وفي عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦ أعلن الشاه أسبان انتمائه للمذهب الإمامي ، ويمكن القول أن هناك أهداف سياسية من وراء ذلك بعد أن بدأ تعاظم خطر الدولة المشعشعية والتي أصبح لها سيطرة واضحة على منافذ التجارة البحرية في الخليج العربي ، لذلك عد اعتناق الشاه المذهب الإمامي محاولة منه لكسب رضا الزعامات الدينية الشيعية في المنطقة وكسب ود أهالي الحلة بصورة خاصة.(٢٦)

بعد أن فرض الشاه آسبان سيطرته على بغداد اوكل حكم الحلة لأبن أخيه المسمى (الوند)سنة ٨٤١ هـ/١٤٣٧م وصادف ذلك العام انتشار مرض الطاعون في معظم مناطق البلاد الأمر الذي أدى بالشاه أسبان بالتنقل في أكثر من مدينة خوفاً من الإصابة حتى وصل الحلة فمرض فيها سنة ٨٤١ هـ وصادف ذلك العام محاولة لقتله وإبعاده عن السلطة كما إدعى الأمير شيخي الذي وشى له بالخبر من قبل ميرزا علي وزاهد وقطلويك ، فقام الشاه بقتل ميرزا علي وأولاده حتى أن زوجته التي اظهرت الجزع لم تسلم فأمر بقتلها بعدها عاد الشاه أسبان إلى بغداد تاركاً على أدارة الحلة ابن أخيه الوند.(٢٧)

بعد وفاة السلطان أسبان حدث خلاف بين أتباعه على كرسي الدولة ولم يؤخذ بوصية الشاه التي طلب فيها تولي ابن أخيه الوند على بغداد ، ذلك أن الأمراء أرادوا تولية الأمر إلى ابنه الصغير فولاذ ليبقى لهم النفوذ في إدارة الدولة ، ولم يرق ذلك إلى الأمير الوند الذي حاصر بغداد واشتبك في عدة معارك مع أمراء بغداد والتي خسرها جميعاً.(٢٨)

اشتد الخلاف بين أمراء القرة قويلو وكانت بغداد واحدة من المواقع المهمة بهذا الخلاف بعد أن طمع فيها الشاه جهانشاه الذي كان مسيطراً على تبريز فتقدم إلى بغداد سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م وحاصرها لمدة ستة أشهر تدهور فيها الوضع الاقتصادي والسياسي ، فطلب أهلها معونة الأمير الوند الذي لبى الدعوة من الحلة ولم يتراجع حتى علم بتراجع الشاه جهانشاه إلى تبريز ، وفي عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م عاود جهانشاه هجومه على بغداد وفرض السيطرة عليها الأمر الذي أرعب ابن أخيه الوند ، إلا أن

جهانشاه اعطاه الأمان شرط تقديم مقاليد الطاعة والولاء وبعد موافقة الوند وضعه عمه مسؤولاً على إدارة الجانب الغربي لبغداد نهاية عام ٨٥٠هـ/١٤٤١م.(٢٩)

رابعاً:- الأوضاع السياسية لمدينة الحلة في ظل التنافس بين دولتي القرة قويلو والإمارة المشعشعية (٨٥٧/١٤٥٣- ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)

بعد اتساع نفوذ الإمارة المشعشعية وسيطرتها على النجف والتي عاثت فيها فساداً حتى انهم قاموا بإحراق مرقد الأمام(ع) ، وفي العام نفسه تعرضوا لقافلة الحجاج العراقية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣ وقتلوا العديد منهم ، ولذلك ارتأت السلطة في بغداد الوقوف بوجه المشعشعين فأعدت قوة من بغداد والحلة لمهاجمة النجف ، وكانت قوة الحلة بقيادة الشحنة بسطام ، وفي المواجهة التي وقعت بالقرب من الكوفة خسرت قوات القرة قويلو وانهزمت باتجاه الحلة ، الأمر الذي استغله المشعشعين بقيادة المولى علي فهاجم الحلة. (٣٠)

تقدم المشعشعين باتجاه الحلة ، فلم يجد بسطام سبيلاً سوى الهروب من الحلة باتجاه بغداد مع قواته وأمر الناس بالخروج من الحلة حتى لا يبطش بهم المشعشعين وذكر الغياثي أن بسطام توجه بشحنة الحلة والعديد من أهل الحلة الى بغداد ، فهلك منهم خلق كثير خاصة عند التزاحم على عبور شط الحلة ، وبعضهم في اثناء السير في الطريق على اثر التعب والجوع والعطش.(٣١)

قام المولى علي أمير المشعشعين بارتكاب المجازر عند دخوله الحلة ، فقتل جمع كثير ومارس إعمال وحشية ضد الناس لمدة ثمانية عشر يوماً لاقى الناس خلالها الأمرين ونقل الأموال إلى البصرة ، وبقيت الحلة بيد المشعشعين حتى سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م ، إذ أمر الشاه بيرجوداق القرة قويلو حاكم شيراز من قائده على بغداد(سيدي علي) بالتوجه للحلة لإعادة أعمارها وكذلك المراقد المقدسة في النجف وكربلاء وفعلاً دخلها في هذه السنة وعمر قلعتها وسوقها.(٣٢)

خضعت مدينة الحلة لسيطرة القرة قويلو حتى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م ، فبعد هذا التاريخ مال ميزان القوى لصالح المشعشعين بقيادة محسن المشعشي والذي مد نفوذه مجدداً لتشمل الحلة والنجف ، وفي عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧ قرر والي بغداد محمد التواجي (الطواشي) استعادة نفوذ الدولة في مدينة الحلة فهاجمها نهاية سنة ٨٧٢هـ /١٤٦٧ بعد صده لهجوم دولة الأق قويلو بقيادة حسن الطويل وتمكن من هزيمة المولى محسن المشعشي لتعود المدينة لسيطرة القرة قويلو وترك عليها صهره حسين علي زينل.(٣٣)

بعد موت محمد التواجي تولى الحكم سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨ صهره حسين علي زينل وترك على إدارة الحلة شاه علي بن قراموس ، والذي حاول أستغلال انشغال والي بغداد بعدة مشاكل والاستقلال بالحلة عن بغداد وفي محاولة لكسب تأييد الوجهاء أشرك معه في الحكم شاه علي بن الاسكندر الذي كان يتصف بأمارات التصوف . (٣٤)

رفضت سلطة بغداد فكرة انفصال الحلة وأرسلت جيشاً لإعادة الأمور إلى نصابها كان بقيادة سيدي احمد جمالي اوغلي وأخوه شاه منصور فدخلوا الحلة مع قواتهم دون مقاومة تذكر حتى وصلوا إلى دار شاه علي بن قراموس فاعتقلوه وتم قتله مع ابن الاسكندر سنة ٨٧٣/١٤٦٨م.(٣٥)

تولى الشاه منصور إدارة الحلة وكان ظلوماً غشوماً عرف بحبه للنساء وللهو وشرب الخمر وذكر الغياثي في تاريخه ان الشاه منصور قتل أناس كثير من أكابر العسكر وجماعة كثر من غير ذنب وفي سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م تولى الشاه منصور ولايتي بغداد والحلة معاً.(٣٦)

خامسا:- الحلة تحت سيطرة دولة الأق قويلو (٨٧٤-٨٩٣هـ)

سيطرت قوات الأق قويلو على بغداد سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م وكانت بقيادة منصور بيك أبن حسن الطويل والذي تولى أدارة بغداد سنة واحدة بعدها تولى بغداد والحلة خليل أغا الملقب (كورخليل) والذي لم يدم حكمه سنة واحدة ، إذ تولى بعده دانا خليل لعدة أشهر ونتيجة لخلافة مع الشاه حسن الطويل وتمرده ، أرسل إليه حملة للقبض عليه فهرب دانا خليل الى محسن

المشعشعي وتولى الحلة بعده شخصاً يدعى حمزة من قبل السلطان حسن الطويل وبقي على إدارتها حتى وفاة الشاه حسن الطويل سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م.[٣٧]

ساعدت الخلافات والانقسامات في دولة الأق قويلو أثر وفاة السلطان حسن الطويل وانشغال الأمراء في التخندق لصالح سلطان دون آخر على امتداد نفوذ الإمارة المشعشعية التي شهدت استقرار أوضاعها الاقتصادية والسياسية وزحفت بقيادة محسن المشعشعي سنة٨٨٣هم ١٤٧٨م للسيطرة على بغداد والحلة وهاجمت قوة من المشعشعين قبيلتي الجحيش وآل جوذر فقتلت العديد من أبنائها ، وعاود المشعشعين الهجوم على الحلة عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م ، وفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م حصل تقارب بين الطرفين وأرسل محسن المشعشي ابنه حسن ليوضح عدم نية الإمارة المشعشعية في التوسيع على حساب دولة الأق قويلو. [٣٨]

سادساً:- الأوضاع الاقتصادية للحلة في عهد دولة القرة قويلو والاق قويلو.

امتازت مدينة الحلة باستواء أرضها وقلة إنحدار الأرض ، رافق ذلك وفرة كبيرة في المياه عن طريق نهر الفرات وتفرعاته وذكر ان عدد الأنهار التي روت الأرض الزراعية في الحلة تجاوزت الثمانية عشر ة نهراً ومن بينها الدير وسورا الأعلى والسيب وطوثى وفورا والنيل والنرس وماري وعدد آخر لا يسعنا ذكره .[٣٩]

ساعدت الظروف المناخية المناسبة وكثرة المياه بأنتشار القرى التابعة للحلة وذكر أحد الرحالة ان الطريق بين الحلة وبغداد من أحسن الطرق وأجملها وذلك بكثرة القرى المتصلة والمنتشرة يميناً ويساراً وكثرة الروافد التي تسقي أراضي هذه القرى.[٤٠] وذكر أنه مر بقرية تسمى التنطرة كثيرة الخصب ، كبيرة المساحة ، متدفقة فيها جداول الماء وارفة الضلال باشجار الفاكهة وهي من احسن القرى وأجملها [٤١]، وفي وصفه لقرية أخرى هي بزريان على الطريق بين الحلة وبغداد ذكر انها(قرية من أحسن قرى الأرض وأجملها منظراً وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطاً وأكثرها بساتين وحدائق نخيل وكان فيها سوق تقصر عنه أسواق المدن.[٤٢]

استدل من ذلك الوصف ان القرى الأخرى التي لم يمر فيها كانت على نفس المستوى الاقتصادي الجيد ،كذلك اشتهرت الحلة بكثرة نخيلها وتعدد المحاصيل المزروعة في أراضيها ومن بينها الشعير الذي اشتهرت فيه منطقة الصدرين وكثرة بساتين الفاكهة كما هو حال قرية سورا التي عرفت بزراعة الأعناب.[٤٣]

إن أهمية الحلة في توفير الموارد الاقتصادية من خلال الناتج الزراعي يفسر لنا المحاولات العديدة للسيطرة عليها من قبل العديد من القوى الغازية والاعتماد في تمويل الجيوش كما حدث للجلائريين عندما قرروا الزحف باتجاه البصرة وكذلك في أيام سني الطاعون والتي جعل منها السلطان احمد الجلائري مقر لديوانه وحكمه لأكثر من سنة يبدو ان الضرائب استمرت على ما كانت عليه سابقاً وهي على ثلاثة أنواع الإقطاع والضمان والجباية المباشرة ، والإقطاع على نوعين فإقطاع التمليك ويوفر للمقطع حق التصرف بالأرض كما يشاء من بيع أو هبة حقوق ملكية الأرض إنما هو أقطاع مؤقت لا يورث واما الضمان كان كثير الشيوع في جباية الخراج وذلك من خلال متعهد يقدم مبلغ من المال عن منطقة زراعية معينة مقابل جمع ضرائب تلك المنطقة.[٤٤]

وكان العديد من الضامنين يستخدم أساليب متعسفة لجمع الأموال من المزارعين واحتكار محاصيل واستغلال الأزمات من اجل رفع السعر عند البيع وجني أموال أكثر.[٤٥]

النوع الثالث من الضرائب هو الجباية المباشرة والتي كانت تستعمل في جباية الخراج والجزية والموكوس وغيرها من الضرائب ، ومن الضرائب الأخرى هي ضريبة الأسواق والحوانيت والتي تفرض على الباعة في الأسواق وأصحاب الدكاكين.[٤٦]

في المجال الاقتصادي كان هناك نشاط بارز في المدينة فقد ذكر الرحالة ابن جبير ان فيها أسواق جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية ووصف رحاله أخر بأن أسواق المدينة منظمة بشكل رائع وفيها أنواع متعددة من الصناعات ومن بين الصناعات التي اشتهرت بها المدينة صناعة الثياب وخصوصاً قرية نرس والتي سميت على ضوئها الثياب النرسية [٤٧]وصناعة المنسوجات الحريرية والتي ذكر ابن بطوطة أنه شاهد أستاراً من الحرير في المساجد في كل من الحلة وكربلاء ، كذلك عرفت المدينة بصناعة العطور والمسك وصناعة الصباغة.[٤٨]

وفي المجال التجاري كان للمدينة دور مهم فهي تمتلك طريقان ساهما بشكل فاعل في تطور التجارة فالطريق البري هو الذي يسلكه الحجاج القادمين من بغداد يمر بالحلة التي تكون محطة إستراحة للحجاج قبل متابعة الطريق إلى الكوفة ومنها إلى مكة المكرمة ، وفي موسم الحج تكون هناك حركة بيع وشراء واسعة بين الحجاج وأهل المدينة ، وكذلك كان الطريق المائي في نهر للفرات إذ كانت الحلة محطة مهمة للقوافل التجارة القادمة من الشمال او الجنوب.(٤٩)

كانت هناك تجارة في عدة سلع مع المدن القريبة من الحلة ومنها بغداد والكوفة وبالنسبة للمنطقة الجنوبية فلم تكن هناك تجارة إلا بصحبة القوافل التي تقودها قبيلة خفاجة وقبيلة أسد صاحبتي النفوذ القوي في المنطقة وذلك بسبب قطاع الطرق المتواجدين في مناطق المستنقعات بين الفرات وواسط والذين طالما تعرضوا للقوافل التجارية حتى عهد الجلائريين . (٥٠)

وفي مدينة الحلة كانت هناك عملية سك النقود ، ففي العهد الجلائري كانت العملة المتداولة تقسم إلى قسمين العملة الذهبية (الدينار) والعملة الفضية الدرهم ، وكان الدينار الذهبي متداول بشكل كبير في الحلة ، ومن المسكوكات الجلائرية المحفوظة في متاحف العالمية هناك عدة دنانير ذهبية ضربت في الحلة وواحد منها ضرب في عهد السلطان أحمد الجلائري .

الخـاتمة

ان الدارس للمرحلة التاريخية التي أعقبت سقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦هـ-١٢٥٨م يكاد يجد تشابه واضح في نوايا تلك القوى المختلفة والتي اتخذت من إدعائها الإسلام غطاء للتوسع والسيطرة على مختلف البلدان الإسلامية ولم يكن همها الوحيد غير التوسع ونهب الخيرات وتدمير الاقتصاد لتلك البلاد وانعكس الصراع بين تلك القوى على تردي الأوضاع الاجتماعية للناس وانتشار الأمراض وتدهور الزراعة .

ففي القرن التاسع الجري / الخامس عشر الميلادي نجد إن هناك صراع بين الدولة الجلائرية والتيموريين للسيطرة على العراق وخصوصاً بغداد والحلة وبعد ذلك بدأ صراع بين الجلائريين وقوة جديدة ظهرت على الساحة متمثلة بالقرة قويلو التي كانت في نزاع مع الجلائريين لعشرات السنين ولم يكن لسكان الحلة إلا التسليم لكل من سيطر على المدينة وفرض قوته عليها ومن خلال تبدل موازين القوى نلاحظ أنه ليس لقوة معينة سيطرة دائمة في المدينة.

أن الدارس لهذه المرحلة يواجه ندرة المصادر التي تتحدث عن الأحوال الاجتماعية والحياة اليومية للناس ونجد أن سرد التاريخ لا يمثل إلا تاريخ السلاطين والحكام ويبدو ان غاية من سيطر على المدن هو الحصول على الضرائب المختلفة وتوفير ما تحتاجه قواته من مؤن ومستلزمات وأن المدينة كانت دائماً عرضة للتخريب والدمار بسبب الصراع طيلة القرن التاسع عشر وان أوضاعها الاقتصادية وخاصة الزراعية كانت تدار من قبل عدد من المتنفذين.

الهـــوامش والمصادر:

١-الغياثي ، عبدالله بن فتح ، التاريخ الغياثي، تحقيق طارق الحمداني ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٧٥ م، ص١١٦.

٢- الدولة الجلائرية ، نشأت بعد وفاة السلطان ابو سعيد أخر ايلخان مغولي سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م ، وذكر أن اصلهم من الأقوام التركية ، أول سلاطين الدولة الشيخ حين الكبير الذي عد مؤسس الدولة الجلائرية . للمزيد ينظر : إقبال محمد ، مفصل تاريخ إيران ، ص٧٠١-٧٧٤.

٣- الغياثي ، المصدر السابق، ص١١٦.

٤- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل أحمد بن علي : الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق عبد الوارث محمد علي ،(طبعة دار الكتب العلمية ،بيروت ١٩٩٧م) ، ج٢ ، ص٩٦.

٥- بيداء عليوي هادي ، الحلة في العهد الجلائري (٧٣٨هـ/١٣٣٧م-٨٣٥هـ/١٤٣١م) ، رسالة مقدمة إلى كلية التربية – جامعة بابل ٢٠٠٩ ، ص٣٧.

٦- لامب ، هارولد ، تيمور لنك ، ترجمة عمر ابو النصر ، بيروت ن ١٩٣٤م ، ص٢٥-٢٦.

٧- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٣ ،(قم ، مطبعة أمير ، ١٩٣٩م) ، ط١، ص٢١-٢٥.

٨- بيداء عليوي هادي ، المصدر السابق ، ص٣٨.

٩- المصدر نفسه ، ص٣٩.

١٠- ستانلي لين ، تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، ترجمة احمد سعيد سلمان ، القاهرة، مطبعة المعارف ، ط٢ ، ١٩٦٩م ، ج١ ، ص٥٣٢.

١١- عباس العزاوي ، المصدر نفسه ، ص ص ٢١-٢٥.

١٢- يوسف كركوش الحلي ، تاريخ الحلة ، ج٢ ، (النجف ، المكتبة الحيدرية ، ١٩٦٥م) ، ص١٠١.

١٣- عباس العزاوي ، المصدر السابق ، ص٤٢.

١٤- علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (بيروت ، دار مكتبة دجلة والفرات ، ط٢ ، ٢٠١٠م) ، ص١٩٤-١٩٥.

١٥- الغياثي ، المصدر السابق ، ص١٣٨-١٣٩.

١٦- يوسف كركوش ، لمصدر السابق ، ج١ ، ص١٠١.

١٧- المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٠١.

١٨- الغياثي ، المصدر السابق ، ص١٣٩.
٢٠- يوسف كركوش ، المصدر السابق ، ص ص ١٠١-١٠٢.
٢١- الغياثي، المصدر السابق ، ص ص ١٤١-١٤٢.
٢٢- يوسف كاظم جغيل ، الحياة الفكرية في الحلة خلال القرن السابع الهجري / خامس عشر الميلادي (الحلة ، مطبعة دار الصادق ، ط١ ، ٢٠١٠م) ، ص٧٦.
٢٣- المصدر نفسه ، ص٧٨.
٢٤- يوسف كركوش، المصدر السابق ، ص١٠٣.
٢٥- الغياثي ، لمصدر السابق ، ص٢٦٤.
٢٦- يوسف كاظم جغيل ، المصدر السابق ، ص٨٥-٨٦.
٢٧- عباس العزاوي ، المصدر السابق ، ص٦٩.
٢٨- المصدر نفسه، ص ٦٩
٢٩- يوسف كاظم جغيل ، المصدر السابق، ص٨٩.
٣٠ – المصدر نفسه ، ص٩٠
٣١- المصدر نفسه ، ص٩٠
٣٢- المصدر نفسه ، ص٩١
٣٣- الغياثي ، المصدر السابق ، ص٣٣٢.
٣٤- العزاوي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٨٦.
٣٥- الغياثي ، المصدر السابق ن ص٣٣٣.
٣٦- المصدر نفسه ، ص ٣٣٣-٣٣٤.
٣٧- العزاوي ، المصدر السابق ن ج٣.
٣٨- يوسف كركوش ، المصدر السابق ص .
٣٩- ماجد عبد زيد ، الحياة الفكرية في الحلة في القرنين السابع والثامن الهجريين ،(الحلة ،طبعة الصادق ن ط١ ، ٢٠١٠م) ، ص٣٨.
٤٠- ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد ، رحلة ابن جبير ،(لندن ، مطبعة برؤيل ، ط٢ ، ١٩٠٧م) ، ص٢١٥.
٤١- المصدر نفسه ، ص٢١٦.
٤٢- رنا سلم شاكر ، الحلة في العصر المغولي الإلخاني ، (٦٥٦-٧٣٦هـ) ، (الحلة ، مطبعة الصادق ، ط١) ٢٠١٠م ، ص٩٤-٩٥.
٤٣- جعفر حسين خصباك ، تاريخ العراق في عهد المغول الإليخانيين ،(بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٨م) ، ص٦٥.
٤٤- ما جد عبد زيد ،المصدر السابق ، ص٤٥.
٤٥- عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ،ص١٤٩.
٤٦- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٢٨٠ ؛ بيداء ، المصدر السابق ، ص٦٠.
٤٧- رنا سليم ، المصدر السابق ، ص٩٧.
٤٨- بيداء عيلوي ، المصدر السابق ، ص٩٧
٤٩- ابن جبير ،المصدر السابق ، ص٢١٥.
٥٠- ناهض عبد الرزاق القيسي ، النقود في العراق (بغداد ، مطبعة بيت الحكمة ، ط١، ٢٠٠٢م) ،ص٤١٦.